دلالات (كان) في القرآن الكريم دراسة في سورة النساء

أ.م.د. عايد جدوع حنون

التوطئة :

غايتي من هذا البحث التوصل إلى نتيجة مفادها: إن السياق هو الذي يحدد دلالة اللفظة، وحتى بعض الألفاظ التي يُظنَّ أن دلالاتها ثابتة فهي ليست ثابتة على وجه الحقيقة، واخترت (كان)؛ لتكون مثالاً على ذلك، واستقرأتُ آراء النحويين فيها، فوجدتهم يضعون لها قواعدَ معيارية بحسب ما يتوصلون إليه من استقراء، واستمرت البحوث والآراء فيها إلى عصرنا الحاضر، فأدليت بدلوي في هذا الموضوع، وتوصلتُ من استقراء سورة واحدة من القرآن الكريم (وهي سورة النساء) إلى دلالات جديدة لم يشر إليها النحويون، ولم يعدوها من قواعدهم المعيارية، فهل يحقّ لي أن استدرك على ما جاؤوا به من قواعد ومعانٍ لهذه اللفظة استناد إلى هذه السورة من القرآن؟ وإذا كان الجواب: نعم يحقّ لي ذلك؟ فهل يحقّ لمن يأتي بعدي بعدما يستقرئ سورة أخرى أن يضيف لهذه القواعد قواعد أُخر، ونستمر في تقعيد القواعد، ونستدرك عليها؟!

الذي أراه أن تحديد دلالة اللفظة في القرآن الكريم يستند إلى السياق، وأسباب النزول، ونحو ذلك، وهو ما تؤكده هذه الدراسة، كما أعتقد أنّ المنهج المعياري – القائم على تقييد الباحث بالقواعد المعيارية التي وضعها الأوائل وإن وُجد ما يخالفها نؤوّل ونقدّر حتى لا نُخالف ما قالوا – صار لا يُجدي نفعاً مع التطور الكبير في المناهج الدراسية الحديثة التي أطلقت العنان للباحث ليُبدع في التوصل إلى نتائج عجز عنها القدامى، ولاسيما المنهج الوصفي، والمنهج التحويلي، والأسلوبية، والحجاج.

فما زال أكثر الدارسين يرددون العبارة الآتية: (كان) فعلٌ ماضٍ ناقص تدخل على المبتدأ والخبر فترفع الأول اسماً لها وتنصب الثاني خبراً لها، ولو سُئِلُوا عن دلالتها لقالوا: إنَّها تدلّ على الزمن الماضي، وكأنَّ هذه

الدلالة توقيفية أو اصطلاحية لهذه اللفظة، والحقيقة إنَّ لهذه اللفظة دلالات ومعانٍ كثيرة ومتنوعة تختلف بحسب السياق الذي ترد فيه، فهي زيادة على دلالتها على الماضي قد تأتي للدلالة على الحال والاستقبال، والوعيد، والتحذير، والشكّ، وغير ذلك.

وهذا لا يعني أنّي أريد الانتقاص من المعيارية أو نفيها من الدراسة، بل أردت القول إنّ المعيارية ينبغي أن تقتصر الدراسة فيها على الدراسات التعليمية المنهجية لطلاب المتوسطة والإعدادية، ولا ينبغي للباحث أو الأستاذ الجامعي أن يُردد ما تعلمه بالإعدادية، بل عليه أن يواكب التطور العلمي في تدريس النحو العربي. ولا يبقى جامداً، لأنّ عجلة الحياة في تطور دائم.

واستشفيت من هذه الدراسة أنَّ (كان) تتغير دلالتها بحسب السياق الذي ترد فيه، ولا يمكن أن تحدها قاعدة أو معيار، وأنَّ القواعد المعيارية تخذل من يستند إليها أحياناً.

دلالات (كان) عند النحويين:

لقد شغلت استعمالات (كان) في الكلام العربي اهتمام العلماء – قديماً وحديثاً –، ومع ذلك لم يستطيعوا أن يجمعوا فيها على رأي جامعٍ مانعٍ، أو على قاعدة مطّردة، ولم يقفوا على كلِّ معانيها على الرغم ممَّا بذلوه في هذا الجانب من جهدٍ جهيد لم يدّخروا فيه وسعاً، فمن يطّلع على (كتاب سيبويه) يجد سيبويه (ت١٨٠هـ) يذكر فيه بعض معاني (كان) في العربية إذ يقول : ((تقول: كان عبدُ الله أخاك ، فإنَّما أردت أن تخبر عن الأخوة، وأدخلت كان لتجعل ذلك فيما مضى))[١]، وقال في موضعٍ آخر:((... قد كان عبدُ الله، أي: قد خُلِق عبدُ الله، وقد كان الأمرُ، أي: وقع الأمر))[٢]، ولم يسمها تامة، كما أنَّه لم يصطلح على (كان) في القول السابق بـ(الناقصة)، بيد أنَّ مصطلح (كان) الناقصة، والتامة، والزائدة نجده عند مَن جاء بعده، فقد وصف الفراء (ت٢٠٧هـ) ما يُعرف بـ(كان وأخواتها) بالنقص إذ قال فيهنَّ: ((يُنين على النقص))[٣]. أمّا ابن جني (ت٣٩٢هـ) فقد سمّى الناقصة بالزمانية، والتامة بالحدثية[٤]. وليس هذا فحسب فقد سمّيت (أفعال عبارة)[٥]، و(فعل مساعد)[٦]، و(اعتباطية)[٧].

ولا نريد أنّ نؤرخ للمصطلح، وإنَّما الذي يعنينا دلالاتها، ومنها ما ذكره سيبويه . آنفاً . إنّها تدلّ على المضي، والخلق، ووقوع الأمر. وذكر الفراء أنَّ من معانيها إنَّها تأتي بمعنى (صار) و(جاء) إذ قال: ((ومثله في الكلام: ما كُنَّا بشيء حين كنتُ، تريد

صرتُ وجئتُ، فتكتفي (كان) بالاسم))[٨]، وعند ابن فارس (ت٣٩٥هـ) تدلّ على المضي، والقدرة، وبمعنى صار، وبمعنى الرُّهُون، وبمعنى ينبغي، وزائدة، واستند فيما ذهب إليه إلى سياق بعض الآيات القرآنية[٩]. وقال ابن يعيش (ت٦٤٣): ((فأما كونها أفعالاً فلتصرفها بالماضي، والمضارع، والأمر، والنهي، والفاعل...، وأمّا كونها ناقصة فإنَّ الفعل الحقيقي يدلّ على معنى وزمان نحو قولك: ضَرَبَ. فإنَّه يدلّ على ما مضى من الزمان وعلى معنى الضرب، وكان إنّما تدلّ على ما **مضى فقط**، و(يكون) تدلّ على ما أنت فيه أو على ما يأتي من الزمان، فهي تدلّ على زمان فقط فلما نقصت دلالتها كانت ناقصة))[١٠]، وردَّ عليه الرضي الاسترابادي (ت٦٨٨هـ) قائلاً: ((وما قول بعضهم من أنَّها سمّيت ناقصة؛ لأنّها تدلّ على الزمان [من] دون المصدر ليس بشيء؛ لأنَّ كان في نحو (كان زيدٌ قائماً) يدلّ على الكون الذي هو الحصول المطلق وخبره يدلّ على الكون المخصوص، وهو كون القيام، أي حصوله فجيء أولاً بلفظٍ دال على حصول ما، ثم عُين بالخبر ذلك الحصول))[١١]، وذكر أنّما سُمّيت ناقصة؛ لأنَّها لا تتم بالمرفوع إلا مع المنصوب بخلاف الأفعال التامة فإنّها تتم بالمرفوع من دون المنصوب[١٢].

أما المحدثون فيرى الدكتور مهدي المخزومي أنَّ لـ(كان) أربع استعمالات في العربية:

- تامة وتكون بمعنى وُجد.
- ناقصة تحتاج إلى منصوب تتحقق به فائدة الإخبار بها.
- مفرّغة من الدلالة على الحدث والوجود ولا تدلّ حينئذٍ إلا على الزمان وذلك في المواضع التي قالوا إنّها زائدة فيها.
- تُستعمل مع الفعل للدلالة على صيغة زمانية معينة، نحو (كان فَعَلَ)، أو(قد كان فعلَ)، أو (كان يفعل)، أو (كان فاعلاً).

ويرى أنّها ليست مستقلة في الدلالة على الزمان، ((ولكنّها ضميمة للفعل الماضي، لتدلّ معه على زمن بعد منقطع، وإذا كان الفعل حاضراً أو مستقبلاً، أي: بصيغة (يَفعل) كانت (كان) أيضاً ضميمة للفعل؛ لتدلّ معه على موقع زمني في الماضي، حاضر أو مستقبل بالنسبة إلى حدثٍ وقع في الزمان الماضي. فإذا قلت: (كان زيدٌ يضحك) دلَّ قولك على وجود ماضٍ وضحك حاضر، أو مستقبل بالنسبة إلى ذلك الوجود، فيضحك وإن كانت بصيغتها دالة على الحاضر أو مستقبل – تعبّر عن حدث الضحك في الماضي، ولكنها

بالنسبة إلى حدث وقع في الماضي وهو: وجود زيد – دلّت على حاضر أو مستقبل))[١٣].

وقال الدكتور إبراهيم السامرائي: ((كان تدلّ على حصول حدث مطلق تقييده في خبره، وخبره يدلّ على حدثٍ معينٍ واقع في زمان مطلق تقييده في (كان)))[١٤].

ومن أكثر الدارسين اهتماماً بدلالات (كان) في اللغة العربية، والخطاب القرآني الدكتور فاضل السامرائي فقد جمع في كتابه (معاني النحو) أهم تلك الدلالات وبيّن رأيه فيها إذ قال: (((كان) فعلٌ ماضٍ ناقص غير أنّها لا تختص بالماضي فقط، بل قد تكون لغيره كما يرى قسم كبير من النحاة))[١٥]، ثم ذكر أبرز معانيها التي ذكرها القدامى، وسأشير إليها بشكلٍ موجز :

١ . **الماضي المنقطع:** وقسّمه على قسمين هما:

- ضربٌ يراد به الاتصاف بالحدث في الزمن الماضي على وجه الثبوت نحو قوله تعالى: ﴿**كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً** ﴾ [سورة التوبة : ٦٩] أي متصفين بهذه الصفات على وجه الثبوت، وهذا إذا كان خبرها اسماً.
- ضرب يراد به أنّه حصل مرّة ولم يكن وصفاً ثابتاً، وذلك إذا كان خبرها فعلاً ماضياً نحو قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ**﴾ [سورة الأحزاب: ١٥] أي أحدثوا معه عهداً سابقاً.

٢. الماضي المتجدد والمعتاد: وذلك إذا كان خبرها فعلاً مضارعاً، وهو نوعان:

- الماضي المستمر وهو ما حدث مرّة وكان مستمراً في حينه نحو (كنت أقرأ في كتابي فجاءني خالد) أي كنت مستمراً في القراءة فجاءني خالد.
- الماضي المعتاد أو الدلالة على العادة في الماضي أي كان الفاعل يعتاد الفعل، وجعل منه قوله تعالى: ﴿**وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**﴾ [سورة الأعراف: ١٣٧].

٣ـ توقع الحدوث في الماضي: نحو (كان محمد سيفعل هذا).

٤. الدوام والاستمرار بمعنى (لم يزل): وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾ [سورة النساء: ٩٦].

٥. **للدلالة على الحال:** وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا**﴾ [سورة النساء :١٠٣]، والذي يراه الدكتور فاضل السامرائي أنّها بمعنى المضي فهي مفروضة على المؤمنين منذ القديم.

٦. **الاستقبال:** وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿**وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا**﴾ [سورة الإنسان: ٧]، والذي يراه الدكتور فاضل السامرائي أنّه من باب تنزيل المستقبل منزلة الماضي لبيان أنّه محقق الوقوع، وأنه بمنزلة ما مضى وفرغ منه.

٧. **بمعنى صار:** وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿**وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا(١٩)وَسُيِّرَتْ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا**﴾ [سورة النبأ: ١٩، ٢٠]. ثم ذكر الدكتور فاضل السامرائي قول ابن يعيش: ((والعرب تستعير هذه الأفعال فتوقع بعضها مكان بعض فأوقعوا (كان) هنا موقع (صار) لما بينهما من التقارب في المعنى))[١٦]، ثم قال : والذي أراه أنّه ليست (كان) بمعنى (صار)، إنّما لها معنى آخر، فإنك لو أبدلت (صار) بـ(كان) ما سدّت مسدها، فإن المقصود بصار هو التحوّل والصيرورة وقد يكون هذا التحوّل بعد مدّة كأن تقول: صار الطين حجراً، وصار محمد شيخاً، فالصيرورة قد تقتضي الزمن الطويل بخلاف (كان) فإنها تطوي الزمن فقوله تعالى:﴿**فَكَانَتْ أَبْوَابًا**﴾، أي كان هذا شأنها منذ الماضي وكأن هذا وجودها[١٧].

٨. **بمعنى ينبغي:** نحو قوله تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ** ﴾ [سورة آل عمران: ٧٩].

٩- **بمعنى القدرة والاستطاعة:** نحو قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً** ﴾ [سورة آل عمران: ١٤٥].

١٠. **تامة بمعنى وُجد:** نحو قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [سورة يس : ٨٢] .

١١. **الزائدة** : وتزاد للدلالة على أحد غرضين:

أ- الدلالة على الزمن نحو (ما كان أحسن زيد) فإنّها تدلّ على الزمن الماضي.

ب- تزاد لضرب من التأكيد نحو (إنّ زيداً كان منطلقٌ).

هذه هي الدلالات التي ذكرها لـ(كان) في الإثبات، أمّا في النفي فذكر أربع حالات أُخر وذكر لكلّ حالة من تلك الحالات معنى.

١ـ ما كان يفعل: نحو (ما كنت أكتب وما كنت أحفظ) تقول هذا التعبير لأحد معنيين: نفي الحدث في وقتٍ معين كأن يقول لك صاحبك (مررتُ بك أمس وأظنك كنت تكتب) فتقول له: ما كنت أكتب، والمعنى الثاني يدلّ على نفي الحدث قبلاً ، وجعل منه قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ**﴾ [سورة العنكبوت :٤٨]

٢ـ كان لا يفعل: إنّ النفي في هذا التعبير مسلّط على (يفعل) وليس على الكون بخلاف (ما كان يفعل)، ففي التعبير (كان لا يفعل) تثبت له عدم الفعل، وفي (ما كان يفعل) أثبت له الفعل، نحو قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا**﴾ [سورة النبأ: ٢٧].

٣ـ ما كان ليفعل (لام الجحود): وهذا التعبير يستعمل لتأكيد النفي نحو قوله تعالى: ﴿**لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ**﴾ [سورة النساء: ١٣٧].

٤ـ ما كان له أن يفعل: ومعناها ما ينبغي ولا يصح[١٨].

ويرى فريد الدين آيدن أنَّ لـ(كان) استعمالات ودلالات أُخر هي: الماضي الروائي، وحكاية الماضي الروائي، والمستقبل الروائي، وجعل لكلِّ استعمال من تلك الاستعمالات ضوابط معيارية[١٩]،

ولم تنتهِ الدراسات عند هذا الحد، ولا أريدها أن تنتهي، لكن الذي تبين لي من خلال اطلاعي على سورة النساء أنَّه من المحال التكهن بمعرفة كل دلالات كان في اللغة العربية، ولاسيما في القرآن الكريم، بل اتّضح لي أنّه من المحال أيضاً وضع قواعد نحوية معيارية عامة يمكن بوساطتها حصر دلالات (كان) في اللغة العربية كلّها بما فيها التعبير القرآني، وأنَّ الفيصل الوحيد في هذا الأمر هو السياق، ومن خلال القرائن السياقية والحالية اللغوية وغير اللغوية (أسباب النزول) يستطيع القارئ معرفة دلالات (كان) في القرآن الكريم وإلا سيقع في أخطاء كبيرة، أو تنحسر أفكاره . على أقل تقدير . في زوايا ضيقة ممَّا يفوّت عليه فرصة التعرّف على جمال هذه اللغة، وأسلوبها الفني البليغ المعجز، وقوتها الحجاجية التأثيرية. وهذا لا يعني أنَّ كلَّ مَن احتكم إلى السياق عرف بلاغة القرآن وإعجازه، ولكن أقصد من ذلك إنّ إطلاق العقل بعيداً عن المعيارية، والقوالب الجامدة سيوفر فرصة أكبر للتعرف على بلاغة القران، وإعجازه، ودلالاته البعيدة، وهذا لا يعني الإحاطة بكلِّ أسراره وكنهه، بل تبقى أسراره قائمة خالدة مذ نزل إلى يوم يُبعثون فهو معجزة لاتُضاهيها معجزة.

دلالات كان في سورة النساء:

لا يمكن التكهن بمعرفة دلالات (كان) في القرآن الكريم؛ لدقة معانيها وتنوعها، وقد تحتمل الآية الواحدة أكثر من دلالة في وقت واحد، زد على ذلك أنَّ كتب التفسير لم تسعفنا في توضيح تلك الدلالات، ومن أهم دلالات (كان) في سورة النساء بحسب ما توصل إليه البحث.

١. الدلالة على الماضي المستمر:

وردت (كان) في سورة النساء دالة على الماضي المستمر في الحالات الآتية:

- **إذا سُبقت بفعل أمر أو نهي:**

لقد تبين من استقراء سورة النساء أنّ (كان) في بعض الآيات تدلّ على الماضي المستمر، إذا سُبقت بأمرٍ أو نهي، نحو قوله تعالى: ﴿**وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا**﴾ **[الآية :٢]** قال القرطبي (ت ٦٧١هـ): ((نزلت في قول مقاتل والكلبي في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم فلما بلغ اليتيم طلب المال، فمنعه عمّه، فنزلت. فقال: العمّ نعوذ بالله من الحُوب الكبير، ورد المال))[٢٠] فالحُوب الذي جاء بعد (كان) وقع في الماضي، ويُستشف من سياق الآية، ولاسيما من الأفعال الدالة على الأمر والنهي **(آتُوا، لاَتَتَبَدَّلُوا، لاَتَأْكُلُوا)** أنّ الله عزّ وجلّ ينهى عن الإتيان بمثل هذا الفعل في وقت نزول الآية وما بعده (الحاضر والمستقبل).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ [الآية :٢٢] قال الطوسي (ت٤٦٠هـ): ((قيل في معنى الآية قولان: أحدهما: قال ابن عباس، وقتادة، وعطاء، وعكرمة إنه حرّم عليهم ما كان أهل الجاهلية يفعلونه من نكاح امرأة الأب. والثاني: أن يكون (ما نكح) بمنزلة المصدر، والتقدير: ولا تنكحوا نكاح آبائكم أي مثل نكاح آبائكم. فعلى هذا يدلّ فيه النهي عن حلائل الآباء، وكلّ نكاح كان لهم فاسد.))[٢١]، وقال ابن كثير (ت٧٧٤هـ): ((عن ابن عباس... قال كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاؤوا زوجوها وإن شاؤوا لم يزوجوها فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية))[٢٢]، ففعل نكاح زوج الأب، وما يتعلق به وقع في عصر ما قبل الإسلام، وتبين بعد نزول القرآن الكريم أنّه يدلّ على الفحش، والمقت، وسوء السبيل، لكنّ الذي يُستشف من السياق، ولاسيما من النهي **(لاَتَنكِحُوا)**

أنّ الله عزّ وجلّ ينهى عن الإتيان بمثل هذا الفعل في الحاضر والمستقبل.

- **إذا كان خبرها جملة فعلية مبدوءة بفعلٍ مضارع:**

قال الزركشي (ت ٧٩٤هـ): ((وحيث أخبر بها عن أفعالهم دلّت على اقتران مضمون الجملة بالزمان نحو: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾ [سورة الأنبياء :٩٠]، ومن هذا الباب الحكاية عن النبي صلى الله عليه وسلّم بلفظ (كان يصوم)، و(كنّا نفعل) وهو عند أكثر الفقهاء والأصوليين يفيد الدوام))[٢٣]. وأشار الدكتور فاضل السامرائي إلى هذه الدلالة إذ قال: ((الماضي المتجدد والمعتاد، وذلك إذا كان خبرها فعلاً مضارعاً))[٢٤]، ومن أمثلتها في سورة النساء قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا(٢٩)وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا**﴾ [الآية :٢٩، ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا(١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا**﴾ [الآية:١٦٩]، فقد جاء خبرها في الآيتين جملة فعلية، والجملة الفعلية تدلّ على الدوام والاستمرار، فاستمدت (كان) دلالاتها على الدوام والاستمرار من الفعل المضارع الذي جاء بعدها.

٢- بمعنى الأزلية إن كان خبرها اسماً من أسماء الله عزّ وجلّ:

قال الراغب الأصفهاني: ((كان عبارة عن المضي من الزمان، وفي كثير من وصف الله تعالى تُنبئ عن **معنى الأزلية** قال تعالى: ﴿**وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**﴾ [الأحزاب:٢٧]))[٢٥]، وكثرت هذه الدلالة في القرآن الكريم ومن أمثلتها في سورة النساء قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا**﴾ [الآية :١٣٠] ، وقوله تعالى: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا**﴾ [الآية:١٣٣]. قال الرازي (ت٦٠٦هـ) في تفسير هذه الآية: ((معناه إنّه تعالى **لم يزل ولا يزال** موصوفاً بالقدرة على جميع المقدورات، فإنّ قدرته على الأشياء لو كانت حادثة لفتقر حدوث تلك القدرة إلى قدرة أخرى ولزم التسلسل))[٢٦].

٣. للدلالة على الوعيد:

قال الرازي في معنى (كنتم) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا**

الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [الآية :٥٩] : ((وهو وعيد))[٢٧]. ويمكن أن تدلّ على **الشكّ.**

٤. للدلالة على التحذير:

وقد تُذكر (كان) ويُراد منها التحذير في الحاضر والمستقبل من شيء كانت له جذور في الماضي كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا**﴾ [الآية :١٠١]. أي احذروهم، ويمكن أن **تدلّ على الماضي المستر.**

٥. لتأكيد الفعل:

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ [الآية :٧٦] . قال الرازي في قوله تعالى: ﴿**كَانَ ضَعِيفًا**﴾ ((للتأكيد لضعف كيده، يعني أنّه منذ كان موصوفاً بالضعف والذّلة))[٢٨].

٦ . للدلالة على تأكيد النفي:

من أمثلته قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً**﴾ [الآية :١٣٧]، فلو أنّهم آمنوا ولم يكفروا يغفر الله لهم ويهديهم سواء السبيل، وأشار الدكتور فاضل السامرائي إلى هذه الدلالة وجعل وقوعها مع الكون المنفي الذي تأتي بعده لام الجحود (ما كان ليفعل) إذ قال: ((وهذا التعبير يُستعمل لتأكيد النفي وذلك إن إثباته (كان سيفعل)))[٢٩]، وفسرها الزمخشريّ في (الكشاف) بقوله: ((نفي للغفران والهداية))[٣٠]، وليس هذا المراد من الآية، بل المراد منها تأكيد النفي (النفي المضاعف)؛ ليتلاءَم هذا النفي المضاعف مع دلالة كفرهم المضاعف، ولو أراد نفي الغفران لقال عزَّ من قائل: لا يغفر الله لهم، وكان السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره للآية أكثر فهماً – ولو أنّه لم يشر إلى دلالة كان فيها– يدلّ على ذلك قوله: ((فالآية تحكم بحرمانهم على ما يجري عليه الطبع والعادة))[٣١].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا**﴾ [الآية:١٦٨]، فلو أراد تعالى النفي لقال: (لا يغفر الله لهم ولا يهديهم طريقاً) ، وقوله تعالى: ﴿**لَمْ يَكُنْ**

اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ يدلُّ على أنّه أراد تأكيد النفي، وتأكيد النفي في الآية جاء متناسباً مع السياق؛ ليؤكد سبحانه وتعالى نفي الغفران، وهذا يتناسب مع دلالة الآية فالكافر ظالم، والظالم كافر، وكأنّ لفظة **(ظَلَمُوا)** في هذه الآية جاءت مؤكدة للفظة **(كَفَرُوا)** مع زيادة في المعنى، فقد أراد الله عزَّ وجل أنَّ **يؤكد** حرمان هؤلاء القوم من التوبة التي قد تشمل غيرهم، وهذا يعني أنَّ ما ذهب إليه الزمخشري في تفسير الآية إذ قال:((إنّه لا يغفر لهما إلا بالتوبة))[٣٢] لا يتناسب مع سياق القول.

الإحالات والحواشي:

(١) الكتاب ، سيبويه : ١/ ٤٥.

(٢) م . ن : ٤٦/١ .

(٣) معاني القرآن، الفراء: ٢/ ٨٤ .

(٤) ينظر : الخصائص، ابن جني: ١٧/١ .

(٥) ينظر: شرح المفصل، ابن يعيش: ٣/ ٣٥٣.

(٦) ينظر: نحو التيسير، د. أحمد عبد الستار الجواري: ٨٢.

(٧) ينظر: الفعل زمانه وأبنيته، د . إبراهيم السامرائي: ٥٦ ، ٥٧.

(٨) معاني القرآن: ١٨٦/١.

(٩) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية: ابن فارس : ٢٤٦-٢٤٧.

(١٠) شرح المفصل:٣/ ٣٥٣ -٣٥٤.

(١١) شرح كافية ابن الحاجب، الرضي الاستراباذي: ٤/ ١٨١.

(١٢) ينظر: م . ن: ٤/ ١٤٨.

(١٣) في النحو العربي نقد وتوجيه ، د. مهدي المخزومي: ١٩٨-١٩٩ .

(١٤) الفعل زمانه وأبنيته: ٥٦.

(١٥) معاني النحو، فاضل صالح السامرائي: ١/ ١٩١.

(١٦) شرح المفصل: ٣/ ٣٦٩.

(١٧) معاني النحو: ١/ ١٩٧ –١٩٨ .

(١٨) ينظر: م. ن: ١/ ١٩١–٢٠٦.

(١٩) ينظر: الأزمنة في اللغة العربية، فريد الدين آيدن:١٣ –١٥ .

(٢٠) تفسير القرطبي، القرطبي: ٥/ ٨ .

(٢١) التبيان في تفسير القرآن، الطوسيّ: ١٥٤/٣؛ وينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري: ٣١٩/٤.

(٢٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ١/ ٤٦٦.

(٢٣) معاني النحو: ١/ ١٩٢.

(٢٤) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني : ٧٣٠.

(٢٥) مفاتيح الغيب، الرازي: ٥٧/١١.

(٢٦) م. ن: ١٠/ ١١٩ .

(٢٧) م. ن: ١٠/ ١٤٧.

(٢٨) معاني النحو : ١/ ٢٠٤.

(٢٩) الكشاف، الزمخشريّ: ٥٧١/١.

(٣٠) الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي : ١١٥/٥.

(٣١) الكشاف: ١/ ٥٨٤.

(٣٢)

روافد البحث:

❖ **القرآن الكريم .**

❖ **المصادر والمراجع:**

الأزمنة في اللغة العربية ، فريد الدين آيدن، دار العِبر للطباعة والنشر، اسطنبول(١٤١٨ هـ . ١٩٩٧م).

البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، المطبعة العصرية (١٤٢٧هـ . ٢٠٠٦م).

- **التبيان في تفسير القرآن** ، أبو جعفر محمَّد بن الحسن بن علي الطوسي (ت٤٦٠هـ)، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي ، قم ، ط١ (١٤٠٩هـ).
- **تفسير القرآن العظيم**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، دار الفكر، بيروت (١٤٠١هـ).
- **تفسير القرطبي**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب ، القاهرة ، ط٢ (١٣٧٢هـ) .
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** ، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري (ت٣١٠هـ)، دار الفكر، بيروت(١٤٠٥هـ).
- **الخصائص**، أبو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ)، تحقيق محمد على النجار، عالم الكتب، بيروت (د. ت).
- **شرح كافية ابن الحاجب**، رضي الدين محمد بن الحسن الاستراباديّ (ت ٦٨٨هـ)، تحقيق يوسف حسن عمر، جامعة قار يونس، ليبيا (١٩٧٨م).
- **شرح المفصّل**، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي (ت٦٤٣هـ)، تحقيق أحمد السيد سيّد أحمد، المكتبة التوفيقية، مصر (د. ت).
- **الصاحبيّ في فقه اللغة ومسائلها وسنن العرب في كلامها**، أبو الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر ، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركائه مصر (د.ت).
- **الفعل زمانه وأبنيته**، الدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ، ط١ (١٩٨٤م).

📖 **فـي النحـو العربـي نقـد وتوجيـه**، الـدكتور مهـدي المخزومـي، دار الشـؤون الثقافيـة العامـة، بغداد، ط٢ (٢٠٠٥م) .

📖 **الكـتاب**، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠ هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة المدني، القاهرة، ط ٣ (١٤٠٨ هـ .١٩٨٨ م).

📖 **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، جار الله محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي (ت٥٣٨ هـ) ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت (د.ت).

📖 **مجمع البيان في تفسير القرآن** ، أمين الدين أبوعلي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ) ، دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٣٧٩هـ).

📖 **معـــــاني القـــــران** ، أبـــو زكريـــا يحيـــى بـــن زيـــاد الفـــراء(ت٢٠٧هـــ) (الجـــزء الأول، تحقيـــق أحمـــد يوســـف النجـــاتي، ومحمـــد علـــي النجـــار ، مطـــابع الهيـــأة المصـــرية العامـــة للكتـــاب، القـــاهرة ، ط٢ (١٩٨٠). والجـــزء الثـــاني تحقيـــق محمـــد علـــى النجـــار، مطـــابع الهيـــأة المصـــرية العامـــة للكتـــاب، القـــاهرة، ط٢ (٢٠٠٠).

📖 **معاني النحـو**، الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر، الأردن، ط٢ (١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م).

📖 **مفـاتيح الغيـب** ، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (ت ٦٠٦ هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١ (١٤٢١ هـ . ٢٠٠٠م).

📖 **مفردات ألفاظ القرآن**، الراغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ) ، تحقيق صفوان عدنان داوودي، (دار القلم . دمشق ، ودار الشامية . بيروت) ، ط١ (١٤٢٦هـ . ٢٠٠٠م).

📖 **الميـزان فـي تفسـير القـرآن** ، السـيد محمَّـد حسـين الطباطبـائي (ت ١٤٠٢هـ)، مؤسسـة الأعلمـي للمطبوعات، بيروت ، ط١ (١٤١٧ هـ . ١٩٩٧) .

📖 **نحو التيسير دراسة ونقد منهجي**، الدكتور أحمد عبد الستار الجواري، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد (١٤٠٤هـ . ١٩٨٤م).